ثياب الشرب

بقلم حبيب زيات

لم ينته الينا من اسماء المنسوجات الرفيعة التي كانت تصنع في الشام ومصر والعراق واليمن وبلاد فارس ، ويتجمّل بها الملوك والرؤساء والاغنياء ، الّا الفاظ معدودة اغفلت المعاجم اكثرها ، وقلّ من تعرّض لذكرها ، كالشَرب ، انفرد الثعالبي بتفسيره ، ونصّ على انهُ ما رقّ من الكتان[1] . واكثر ما كان يعمل بمصر لتوفّر زراعة الكتان فيها ، ومن مدنها التي اختُصّت به الاسكندرية ودمياط ودبيق وتنيس وشطا وأبوان ، وابوان هذه « مدينة كانت قرب دمياط كان اهلها نصارى ويعمل فيها الشرب الفائق فينسب اليها فيقال له برنيّ على غير لفظه »[2] . واشتهرت به ايضاً عدن في اليمن حتى « كانت شروبها تُفضَّل على القصب . »[3]

ويعرف من الشرب نوعان ابيض وملوّن ، وكان يكون ساذجاً او مُذهباً ويُطرَّز بمثله فتتضاعف قيمته جداً ، ويدخل احياناً في طرازه الحرير والقزّ ، وقد اشتهرت به الاسكندرية خاصة شهرة طائرة في كل الامصار كشهرة اكثر ما كان يُحاك فيها قديماً . قال المقريزي : « الثياب المنسوجة بالاسكندرية لا نظير لها وتحمل الى اقطار الارض ، وفي ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه اذا عُمل ثياباً يقال لها الشرب كل زنة درهم بدرهم فضة ، وما يدخل في الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة »[4] . ومن احسن ما عثرنا عليه من وصف الشرب قول شهاب الدين العمري :

« اراني خواجا جمال الدين الفاخوري مقاطع شرب ابيض من الصنف المرش استعملها بالاسكندرية على ان يقدمها للسلطان ابي سعيد كأنها جناح

---

١) فقه اللغة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ٢٤٣

٢) معجم البلدان ١ : ١٠١

٣) احسن التقاسيم للبشاري المقدسي ٦٨

٤) الخطط ١ : ٢٦٣

الزنبور لا اظن انه يعادلها في الدنيا قماش . قال انه استعملها ويقوم عليه كل مقطع منها ساذجاً بسبعمائة درهم ورقاً ويقوم طرزه وهو ساذج بمثل ذلك فتقوم جملة المقطع الواحد بالف واربعمائة درهم ورقاعها سبع مائة درهم نقرة ليس فيه الا الكتان وما فُتل من الحرير في طرزه . على انه لا يكون غالب الطرز الّا من الكتان فان الابيض منه لا يكون من الحرير ابداً ومنه تكون الكتابة وهي جلّ الطراز . وقال لي ان الكتان يباع الدرهم منه باكثر منه . واما ما يدخل في الطرز فيباع نظير وزنه مرات عديدة . قلت وهذا الشرب هو الذي تفوق به الاسكندرية البلاد اكثر من بقية ما يعمل فيها من القماش على اختلاف اجناسه وانواعه . »[1]

ومن اغرب ما كان يُعتقد فيه بدمياط ما رواه ياقوت عن الحسن بن محمد المهلبي قال : من ظريف امر دمياط في قبليّها على الخليج مستعمل فيه غُرَف تعرف بالمعامل يستأجرها الحاكة لعمل ثياب الشرب فلا تكاد تنجب الا بها فان عُمِل بها ثوب وبقي منه شبر ونقل الى غير هذه المعامل علم بذلك السمسار المبتاع للثوب فينقص من ثمنه لاختلاف جوهر الثوب عليه .»[2]

واغلب ما كان يتخذ من الشرب ، فيما وقفنا عليه ، الاقمصة والمناديل والعمائم الفاخرة والمعاجر وقوارات الصوافي والاكفان ، وفي المغرب عصائب للنساء تسمى من اجله « شربيّة »[3]. وكان « يعمل في شطا الشرب الرفيع الذي تبلغ قيمة الثوب منه ثلثمائة درهم ولا ذهب فيه »[4]. واشتهرت دبيق من قرى دمياط بالعمائم الشرب الملونة « وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع وفيها رقمات منسوجة بالذهب فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل . وحدثت هذه العمائم وغيرها في ايام العزيز بالله بن المعز سنة خمس وستين وثلثمائة الى ان مات في

---

١) الثالث من مسالك الابصار ، باريس ٢٣٢٥ ، ص ١٦٣ – ١٦٤

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٠٣

٣) Dozy : *Dictionnaire des noms des vêtements chez les Arabes*, p. 219

٤) عجائب المخلوقات للقزويني ، طبعة وستنفلد ، ١٣٩

شعبان سنة ست وثمانين وثلثمائة »[1] . ولما مات برجوان الخادم وكان خصيًا ابيض ربي في دار العزيز بالله « وجد الحاكم في تركته مائة منديل يعني عمامة كلها شروب ملونة معممة على مائة شاشية »[2] .

وقد يعجب جدًا من طول العمامة مائة ذراع ، ولكن اذا تُذُكِّر ان الشرب كان احيانًا برقة جناح الزنبور ، كما تقدم من وصف شهاب الدين العمري ، لا تكون العمامة منه اشد هولًا من عمائم بعض القضاة التي كانت تملأ صدر المحراب . وقد تناقص هذا الطول حين كان عمارة اليمني الشاعر بمصر ، ولما زار علي بن الربد لوداعه صادف عنده رسولًا له « كان بدمياط يستعمل شروبًا قال : فدفع لي لما وصل اليه في تلك الساعة شقة خزانية ولفاقة وتلثيمة طولها ثلاثون ذراعًا رقم الجميع نسجة واحدة »[3] يريد بالتلثيمة العمامة التي يردها الرجل على انفه ويتلثم بها . ولعمارة قصيدة مدح بها محمد بن شمس الخلافة وهو بدمياط ، واستهدى منه عمامة شرب جديدة وكتب له فيها :

فأنفذ لي باطول من حسابي اذا أُحضرتُ في يوم الثياب
ولا تكُ يا خطير فدتك نفسي قديمةَ مدّةٍ لحفت قُداب
وأرسلها وختم الشرب فيها كخود فوق وجنتها عرام
كأن بياضها وجهٌ تقيٌّ وحسن الرقم فوق الخد شامة[4]

وقوله ارسلها والختم فيها اشارة الى خاتم الشرب والدبيقي الذي كان يضعه عامل الديوان على كل المقاطع بعد اداء المكس . وقد عدّ المقريزي في جملة مكوس مصر الف وخمسمائة دينار كانت تتحصل منه[5] . ومن الشرب ايضًا معابر كانت تُطلَق على الرماح ذكرها المقريزي في الخطط فقال :

« وفي العشر الاخير من ذي الحجة في كل سنة ينتصب كل من المستخدمين بالاماكن لاخراج آلات الموكب من الاسلحة وغيرها . . . ثم يخرج

١) الخطط للمقريزي ١ : ٣٦٥
٢) » » » ٣ : ٥
٣) النكت العصرية لعمارة ١٤٩
٤) » » » ١٣٩
٥) الخطط ١ : ١٦٨

من خزانة التجمل وهي من حقوق خزائن السلاح القصب الفضة برسم تشريف الوزراء والامراء ... وهي رماح ملبسة بانابيب الفضة المنقوشة بالذهب الا ذراعين منها فيشد في ذلك الخالي من الانابيب عدة من المعاجر الشرب الملونة ويترك اطرافها المرقومة مسبلة كالصناجق »[1]

« وفي يوم فتح الخليج ... صار يستعمل في الطراز ... برسم تغطية الصواني عدة من عراضي دبيقي ثم قوارات شرب تكون من تحت العراضي على الصواني مفتح كل قوارة منهن اربعة اشبار ... ولقد بيعت عدة من القوارات الشرب فسارع التجار العراقيون الى شرائها ونهاية ما بلغ ثمن كل واحدة منهن ستة عشر ديناراً . »[2]

وممن كُفِّن بثياب الشرب الوزير يعقوب بن كلس واختير له منه ما كان مذهباً من عمل دبيق .[3]

ونظراً لرقة الشرب ونعومته كانت العرائس تؤثره للجلاء ، ومن الابيات الشاهدة بذلك قول عبد الصمد بن المعذل :

ثم اجلوك كالعروس على الشر ب تهادى في جسم مصقول[4]

ومنه اخذ شرف الدين بن حبيب في مجلد له سماه الشذور وجمع فيه مقطعات شعره ، قوله في تاجر :

يا حسنه حين يُجلى بالشرب فوق السرير[5]

ولا ريب انه كان يعمل منه نوع خاص كانت تلبسه العساكر من الامراء وغيرهم في دولة المماليك ، وهو ما اشار اليه المقريزي بقوله : « كانت العساكر من الامراء وغيرهم تلبس النوع من الكتيخا والمخمل والاسكندراني والشرب ... »[6] ومن ارغب الناس في الشرب اهل العراق لقول البشاوي

١) الخطط ٢ : ٢١٥
٢) » ٢ : ٢٥٦
٣) » ٣ : ١٠
٤) الاغاني ١٢ : ٦٧
٥) تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه ، بريتش موزيوم Add. 7335 f° 223
٦) الخطط ٣ : ٢٥٢

المقدسي: « اقليم العراق من رسومهم التجمل والتطيلس . . . ولبس الشروب »[1] ومنها « طيلسان شرب اسود وهو الذي يسمى بالمغرب الإحرام »[2]

وكان في مصر قيسارية تدعى قيسارية الشرب بشارع القاهرة تجاه قيسارية جركس[3]، وكان بدمشق ايضاً قيسارية شرب، ومن تجارها المذكورين علاء الدين علي بن بدر الدين الاربلي تجار البغداديين توفي سنة ٧١٢ / ١٣١٢.[4]

---

١) احسن التقاسيم ٤٨

٢) رحلة ابن جبير ٥٠

٣) الخطط ٣ : ١٤٠

٤) تالي وفيات الاعيان لفضل الله الصفاعي، باريس ٢٠٦١، ص ٨٤